الإنسان في القرآن

حينما قال اللغويون : الإنسان يطلق على الذكر والأنثى من بني آدم ، أرادوا تعريفَ ذلك الكائن الحي المسوَّى من لحم ودم ، وأعصاب وألياف ، ولكن كلمة « الإنسان » كسبت من استعمالها مع الأيام مجموعةً من المعاني صار بها ذلك الإنسان « إنساناً » ، حتى إن العامة نفسها تقول : إن فلاناً رجل « إنسان » ، أي يتصف بصفات تجعله أهلاً لحمل ذلك الوصف الكريم الأصيل .

ولقد ذكر الراغب الأصفهاني في « مفردات القرآن » أن الإنسان سُمِّي بذلك لأن الله خلقه خلقةً لا قوام له فيها إلا بأُنس بعض أفراده إلى بعض ، ولذلك قيل : الإنسان مدني بالطبع ، من حيث إنه لا قوام لأبنائه إلا إذا كان بعضهم لبعض ، ولا يمكن لفرد منهم أن يقوم وحده بجميع أسبابه .

والإنسان القويم في الناس هو إنسان العقل والعلم والإيمان والعمل ، وهو شيء كبير في جوهره وأثره ، وإن بدا ضئيلاً في جسمه وحجمه ، ولم ينل كائن من المخلوقات ما ناله الإنسان من تشريف ، ولقد بدأت سلسلة

التشريف الإلهى للإنسان - كما حدثنا القرآن - بأن خلق الله بيده آدمَ عليه السلام ، وهو الأب الأول للإنسان ، وأطلق عليه اسم « الإنسان » كأنه عَلَم له ، وكأنه النموذج الدال على سلالته وذريته ، فقال القرآن : « ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِن صَلْصَالٍ من حَمَإٍ مَسْنُون » . وقال : « وبَدَأَ خَلْقَ الإنْسَان مِنْ طِين » وقال : « الرَّحْمَنُ ، علَّم القرآن ، خلق الإنسان ، علّمه البيان » .

ولم يكتف الله جل جلاله بأن يخبرنا ويحدثنا عن خلقه آدم كمظهر من مظاهر قدرته ، بل حدثنا أيضاً عن حكمته فى هذا الخَلْق ، فإذا عنوان آخر من عناوين التشريف لهذا الإنسان ، وإذا هو يختاره خليفةً فى كونه ، وتغيب هذه الحكمة حيناً عن الملائكة الأطهار ، حتى يعلن الله عنها بعد قليل فى هالة من الاحتفال والتكريم : « وإذْ قال رَبُّك للْملائكةِ إنِّى جاعلٌ فى الأرْضِ خَليفةً ، قالُوا أتجْعلُ فيها من يُفْسِدُ فِيها ويَسْفِكُ الدِّماء ، ونَحْن نُسبِّح بحَمْدِك ونُقَدِّس لَكَ ؟ قالَ إنِّى أعْلَمُ ما لا تعلمون » .
(سورة البقرة الآية ٣٠)

هذا الخليفة هو آدم أبو الإنسان ، أو الإنسان الأول ، فقد حسب الملائكة أن هذا الخليفة سيكون مثل من كان قبله فى الأرض من أحياء ، ولكن الله صحح لهم فهمهم فقال : « إنى أعلم ما لا تعلمون » .

وإذن فالمشيئة العليا تريد - كما يقول بصير من المفسرين - « أن تسلّم لهذا الكائن الجديد فى الوجود ، زمامَ هذه الأرض ، وتطلق فيها يده ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق فى الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب ، والتحوير والتبديل ، وكشف ما فى هذه الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز

وخامات ، وتسخير هذا كله – بإذن الله – فى المهمة الضخمة التى وكلها الله إليه .

وإذن فقد وُهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة ، والاستعدادات المذخورة ، كفاء ما فى الأرض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، ووُهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية .

وإذن فهنالك وحدة أو تناسق بين النواميس التى تحكم الأرض ، وتحكم الكون ، والنواميس التى تحكم هذا المخلوق وقواه وطاقاته ، كى لا يقع التصادم بين هذه النواميس وتلك ، وكى لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة .

وإذن فهى منزلة عظيمة منزلة هذا الإنسان ، فى نظام الوجود على هذه الأرض الفسيحة ، وهو التكريم الذى شاءه له خالقه العظيم .

هذا كله بعض إيحاء التعبير العلوى الجليل : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . حين نتملاه اليوم بالحس اليقظ والبصيرة المفتوحة ، ورؤية ما تم فى الأرض على يد هذا الكائن المستخلف فى هذا الملك العريض » ! .

° ° °

وإنسان القرآن إنسان قد أفاض عليه ربه نعمة العلم ، ويالها من نعمة ، وتزداد قيمة هذه النعمة حين نتذكر أن الله قد أفاض عليه هذه النعمة فى فجر ميلاده ، والحياة على الأرض لم تبدأ بعد : « وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كُلَّها ثمَّ عرضَهُم علَى الملائكةِ فقالَ أَنْبِئُونِى بأسْماءِ هؤُلاءِ إنْ كُنْتُم صادِقِين . قالُوا سُبْحانك لا عِلْم لنَا إلاَّ ما علَّمتَنا إنَّك أنْتَ العَلِيمُ الحكِيمُ . قالَ يا آدَمُ أنْبِئْهُم بأسْمائِهِم فَلَمَّا أنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِم قالَ أَلَمْ أَقُلْ لكُم إنِّى أعْلَمُ

غيْبَ السَّمٰواتِ والأرْضِ وأعْلَمُ ما تُبْدونَ وما كُنْتم تكْتُمون »
(سورة البقرة : ٣١ - ٣٣) .

وما أروع أن يقدِّم الله جل جلاله هذا الإنسان الذى خلقه بيده ، على الملائكة ، ويعلمه ما لا يعلمون ، حيث أودع فى نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، وعلمه كل شىء يزينه أن يعلمه ، وطلب من الملائكة أن يذكروا علمهم ، فإذا هو لا يبلغ مبلغ العلم الموهوب لآدم أبى الإنسان .

وتكون النتيجة الطبيعية لهذا التفضيل أن يُقِرَّ بها الملائكة ويعترفوا ، وأن يعبروا عن هذا الاعتراف بإظهار فضل آدم عليه كما أمر ربهم وربه : « وإذْ قلْنا للملائكةِ اسْجُدوا لآدمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْليسَ أبى واسْتكْبَر وكان منَ الكافِرينَ » . (الآية ٣٤ من سورة البقرة) .

وهكذا بعد أن ظهر فضل آدم بالعلم ، أراد الله أن يظهر تكريمه فأمر الملائكة بأن يسجدوا لآدم سجود إظهار للفضل ، لا سجود عبادة ، فأطاعوا جميعاً وكانوا منصفين ، إلا إبليس فسق عن أمر ربه وعصى ، فكان من المجرمين الملعونين !

وسجود الملائكة للإنسان ممثلاً فى أبيه الأول – آدم – يعد أروع صورة للتكريم ، فقد ارتفع الإنسان بهذا التكريم فوق الملائكة ، وهم عباد مكرمون ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ولقد آتاه الله قبل ذلك فضل الخلق الإلهى له ، وفضل نفخ الروح فيه ، وبعد ذلك فضل العلم والمعرفة .

وأكد القرآن الكريم كثيراً وطويلاً نعمة العلم هذه ، فقال تلك الآيات : « عَلَّم الإنْسانَ مَا لَمْ يَعْلم » . (سورة العلق ٥) .

« وعلَّمكَ ما لَمْ تكُنْ تَعْلَم وكان فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عظِيماً » .
(سورة النساء ١١٣) .

« وقل رب زدنى علماً » . (سورة طه ، الآية ١١٤) .

« يَرْفع اللهُ الَّذِين آمَنُوا مِنْكُمْ والَّذِينَ أُوتُوا العِلْم دَرَجات » .
(سورة المجادلة . الآية ١١) .

« قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِين يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يعْلَمُون » . (الزمر - ٩) .

« كذلك نُفصِّل الآياتِ لقَوْمٍ يَعْلَمُون » . (سورة الأعراف - ٣٢) .

« إنَّما يَخْشَى اللهَ من عباده العلماءُ » . (سورة فاطر ٢٨) .

* * *

وإنسان القرآن العالم يجعل الله له رائداً وقائداً هو العقل قرين العلم ، ولذلك تكررت مادة العقل ما يقرب من خمسين مرة فى كتاب الله الحكيم ، مثل : أفلا تعقلون . لعلكم تعقلون . إن كنتم تعقلون . أفلم تكونوا تعقلون ؟ وما يعقلها إلا العالمون . إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . . . إلخ إلخ .

ولقد روى الحكيم الترمذى عن أنس رضى الله عنه قال : أثنى قوم على رجل عند النبى صلى الله عليه وسلم حتى بالغوا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف عقل الرجل ؟

فقالوا : نخبرك عن اجتهاده فى العبادة وأصناف الخير ، وتسألنا عن عقله ؟ !

فقال صلى الله عليه وسلم : إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، وإنما يرتفع العباد غداً فى الدرجات الزلفى من ربهم على قدر عقولهم .

وعن عمر رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدى صاحبه إلى هدى ، ويرده عن ردى ، وما تم

إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، بم يتفاضل الناس فى الدنيا ؟ .

قال : بالعقل .

قلت : وفى الآخرة ؟

قال : بالعقل .

قلت : أليس إنما يجزون بأعمالهم ؟

قال صلى الله عليه وسلم : وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل ، فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم ، وبقدر ما عملوا يجزون .

* * *

وإنسان القرآن إنسان يعلن ربه التكريمَ له على الملأ ، ويسجله فى كتاب يبقى بقاء الزمن ، ويدوم دوام الدهر ، ويعدد مظاهر هذا التكريم بقوله : « ولقَد كرَّمْنا بَنِى آدمَ ، وحملْناهُمْ فى البرِّ والبَحْرِ ، ورزَقْناهُم منَ الطَّيِّباتِ ، وَفضَّلْناهُم على كَثيرٍ مِمَّنْ خلقْنَا تَفْضِيلاً » .

(سورة الإسراء الآية ٧٠)

ويهب الله جل علاه الإنسانَ نفساً تنطوى على خصائص وقوى تحار فيها العقول ، ويطول حولها البحث ، حتى يقول القرآن : « وفِى أنْفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرون » . (سورة الذاريات الآية ٢١) . ويشير إلى ذلك الشاعر فيقول للإنسان .

وتزعم أنكَ جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وإنسان القرآن إنسانُ عملٍ موصول وحركة دائبة ، وهو لا يعمل مطلق

عمل ، بل يطالبه ربه بأن يكون عمله صالحاً ، ولذلك تكررت عبارة « آمنُوا وعَملُوا الصَّالحاتِ » عشرات المرات فى القرآن .

ويقول القرآن فيما يقول : « وأمَّا مَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً فله جَزَاءً الحُسْنى » . (سورة الكهف الآية ٨٨) ، ويقول : « ومَنْ أحْسَن قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلَى اللهِ وعَمِلَ صَالحاً » (سورة فصلت الآية ٣٣) ويقول : « مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ » (سورة الجاثية ١٥) ويقول : « قُلْ يا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إنِّى عاملٌ » (الأنعام الآية ١٣٥) ويقول : « وقل اعْمَلُوا فَسَيرى اللهُ عَمَلَكُم ورسولُه والمؤْمِنُونَ » (التوبة ١٠٥) . ويقول : « ولاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَملٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهوداً إذْ تُفِيضُونَ فِيهِ »

(سورة يونس ، الآية ٦١)

° ° °

وإنسان القرآن إنسان كبير كبير بفضل الله وإنعامه وتوجيهه .

إنه كبير صلح ليكون خليفة لله فى الأرض كما رأينا: « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

إنه كبير صلح ليكون منه أنبياء ورسل : « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

إنه كبير صلح منه – وهو رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم – الذى مكنه ربه من تحطيم المسافات والحواجز كما رأينا فى حادث الإسراء والمعراج . والقرآن يقول فى أول سورة الإسراء :

« سُبْحَانَ الَّذِى أسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الحرامِ إلى الْمَسْجِدِ الأقْصَى الَّذِى بارَكْنَا حَوْلَه لِنُرِيهُ مِنْ آياتِنَا إنَّه هُو السَّمِيعُ البَصِيرُ » .

ويقول : « عَلَّمهُ شَدِيدُ القُوَى . ذُو مِرَّةٍ فاسْتَوى . وهْوَ بالأُفقِ الأعْلَى . ثُمَّ دَنَا فتدلَّى . فكان قابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنَى (سورة النجم من ٥ – ٩) .

إنه كبير صلح لكل ما أظهر الله على يديه ، ومكنه من اختراعه وابتكاره وتسخيره ، ومن كشف أسرار الطبيعة التي جعلها الله أمام الإنسان قرآناً منظوراً : « قُلِ انْظُروا ماذَا فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ » (سورة يونس الآية ١٠١) ووهب الله الإنسان في هذا المجال قدرة هائلة على المسير ، وعلى التفكير ، وعلى التدبير ، والله هو صاحب الفضل العظيم .

° ° °

والإنسان كما يصوره القرآن حي عاقل شاعر حساس مسئول محاسَب على ما يفعل ، مجزى بما يعمل ، « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ ، ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شراً يَرَهُ » (سورة الزلزلة ٧ ، ٨) ، وهذا يعطي الإنسان احتراماً وشخصية وكياناً له استقلاله وحريته وتبعته ، ولذلك يقول الكتاب الحكيم : « بلِ الإنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصيرةٌ ، ولَوْ ألْقَى مَعاذِيرَه » (سورة القيامة ١٤ ، ١٥) فنفس الإنسان - كما يقول أهل التفسير - موكولة إليه تابعة له ، من واجبه أن يرشدها ويسدد خطاها ، وأن يباعدها عن الشر قدر طاقته وإمكانه ، وأن يهديها إلى الخير ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وهو مسئول عنها ، ولن يقبل الله منه عذراً إذا فرط في صيانة هذه النفس وتوجيهها نحو سبيل الله .

وقد منحه الله فرصة التمييز والاختيار : « إنَّا هَدَيْناهُ السَّبيلَ إمَّا شاكراً وإمَّا كَفُوراً » (سورة الإنسان ٣) ، « ونفْسٍ وما سوَّاهَا فألْهَمَهَا فُجُورها وتَقْواهَا ، قَدْ أفْلَحَ مَن زكَّاها ، وقدْ خَابَ مَنْ دَسَّاها » (سورة الشمس الآيات من ٧ - ١٠) ، « مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ . ومَنْ أساءَ فَعَلَيْها ، وما ربُّكَ بظلاَّمٍ لِلْعَبيد » . (سورة فصلت ٤٦) .

والإنسان في تصوير القرآن مطلوب منه النهوض بتبعته الفردية ،

يتحملها ويؤخذ بها ، وهو مخلوق راشد رشيد ، وكل جزء من سعيه محصى عليه مراجَع فيه ، وسينال هذا الإنسان جزاء سعيه وافياً بلا نقص ولا هضم ، يقول القرآن : « وأنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إلاَّ ما سَعَى ، وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثمَّ يُجْزاهُ الجزاءَ الأَوْفَى » (سورة النجم الآيات ٣٩ – ٤١) .

ومن هنا يفجر القرآن فى حياة الإنسان ينابيع الإدراك والشعور والوجدان ، ويحرك منه أوتار القلب واللب والروح والنفس ، ليتفكر ويعلم ، ويفقه ويعتبر ، ويخشى ويتعظ ، فيتحدث كثيراً على النمط التالى :

« إنَّ فى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ » (سورة النور ٤٤) .

« لَقَدْ كانَ فِى قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأُولِى الأَلْبَابِ » (سورة يوسف ١١١) .

« إنَّ فِى ذلكَ لعبرةً لِمَنْ يَخْشَى » (سورة النازعات ٢٦) .

« وتلْكَ الأمْثالُ نضْرِبُها للنَّاس لعلَّهم يَتفكَّرون » (الحشر ٢١) .

« قد فَصَّلْنا الآياتِ لقوْمٍ يَفْقَهونَ » (الأنعام ٩٨) .

« ونُفصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمون » (التوبة ١١) .

ومن هذا الوادى أن القرآن المجيد جعل حياةَ الإنسان قائمة على زوجين ، هما المرأة والرجل ، ولم يجعل العلاقة القائمة بين الزوجين مقصورة على لذة الجنس ، أو متعةِ الحس ، أو شهوة النفس ، بل جعل عماد هذه العلاقة سكينة وطمأنينةً وألفة قلوب ، فقال : « هُوَ الَّذِى خَلقكُمْ من نَفْسٍ وَاحدةٍ وجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِيَسْكُنَ إليْها » (الأعراف ١٨٩) . وقال : « ومن آياتِهِ أنْ خَلَقَ لكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ أزْواجاً لتسْكُنوا إليْها وجَعَلَ بيْنكُم مَوَدَّةً ورحمةً إنَّ فِى ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يتفكَّرونَ » (الروم ٢١) .

* * *

ومن عناية القرآن الكريم بالإنسان أن القرآن حذر الإنسان عدوَّه

اللدود وخصمه العنيد ، وهو الشيطان المريد ، وأكد القرآن التحذير ، حتى لا يبق للإنسان عذر يعتذر به إذا وقع فى شراك هذا الشيطان .

إن القرآن يتحدث هنا على هذا النحو .

« إنَّ الشَّيْطانَ للإنْسانِ عَدوٌّ مُبينٌ » (سورة يوسف ٥) .

« ومَنْ يتَّخِذ الشَّيْطانَ وليًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَد خسِرَ خُسْراناً مُبيناً »

(لنساء ١١٩)

« يا بَني آدمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَما أخرَجَ أبوَيْكُم مِن الجَنَّةِ »

(الأعراف ٢٧) .

« وإمَّا ينزَغَنَّك مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فاسْتَعِذْ باللهِ إنَه هُو السَّميعُ العليمُ »

(الأعراف ٢٠٠) .

« إنَّ الشَّيْطَانَ ينزَغُ بَيْنَهُم » (الإسراء ٥٣) .

« يَـأَيها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوات الشَّيْطَان » (النور ٢١) .

« وكان الشَّيْطَانُ للإنْسَانِ خَذُولاً » (الفرقان ٢٩) .

* * *

ونحن لا ننسى – ولا ينبغى لنا أن ننسى أن القرآن قد نسب إلى الإنسان كثيراً من السيئات ، وهذه أوصاف خاصة بالإنسان الذى أعرض عن ربه ، وانحرف عن طريقه . واستجاب لنزعات الشيطان ، ولو احتفظ الإنسان بفطرته الأصيلة ، واستمسك بالإيمان والعمل الصالح والحق ، والصبر فى طريق هذا الحق ، لما استحق شيئاً من هذه الصفات التى يشوه الإنسان بها فطرته .

وهذا بدليل قول الله سبحانه : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر » .

على هذا الأساس نستطيع أن نتفهم المراد بأمثال هذه الأوصاف المنسوبة إلى الإنسان بعد انحرافه واعتسافه :

« إنَّ الإنْسَانَ لظَلُومٌ كفَّار » (إبراهيم ٣٤) .

« وكانَ الإنْسانُ عَجُولاً » (الإسراء ١١) .

« وكانَ الإنْسَانُ قَتُوراً » (الإسراء ١٠٠) .

« وكانَ الإنْسَانُ أكْثَرَ شَيْءٍ جَدلاً » (الكهف ٥٤) .

« إنَّه كانَ ظَلوماً جَهُولاً » (الأحزاب ٧٢) .

« إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً » (المعارج ١٩) .

« إنَّ الإنْسَانَ لِرَبِّه لكَنُودٌ » (العاديات ٦) .

* * *

على أن القرآن المجيد – وهو كتاب الرءوف الرحيم – قد استبق روح الترفق فى خطاب الإنسان ، حتى فى مواقف المحاسبة والمعاتبة والمراجعة ، فجاءت طريقة الخطاب شفافةً متلطفة ، فى مثل قول الله تبارك وتعالى : « يأيُّها الإنْسانُ ما غرَّكَ بربِّكَ الكَرِيمِ . الَّذِى خَلَقَكَ فسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِى أىِّ صُورةٍ ما شَاءَ ركَّبَكَ » (الانفطار ٦ – ٨) .

يعلق الأستاذ الإمام محمد عبده على هذا النص الإلهى الكريم فيذكر أن الله خاطب الإنسان بقوله : « يأيها الإنسان » ولم يقل : أيها المخلوق ، أو العبد . وفى الإنسان معنى العاقل المتفكر ، الذى أوتى من قوة ، وبسطة القدرة فى العمل ، ما لا حدَّ له ينتهى إليه ، حتى صار بذلك أفضل المخلوقات وأكملها ، ونال بفضل ما أوتيه قوة السلطان عليها ، ولم يكن ذلك كله إلا منحةً من ربه الكريم ، الذى أحسن كل شىء خلقه .

وهذا الكريم إنما يليق به أن يوفى كلَّ مرتبة من الوجود حقها ، فالإنسان

الذى خص بهذه المنزلة من الكرم الإلهى ، لا ينبغى أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان ، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر ، وإنما يتساوى مع بعضها فى الحياة الأولى ، من حيث قصر المدة وسرعة الفناء . ولكن الذى يليق بعقله ، وقوة نفسه الناطقة ، أن تكون له حياة أبدية لا حد لها ، ولا فناء يأتى عليها » .

وإذا رجعنا إلى تفسير الآيات السابقة فى كتاب « ظلال القرآن » نجد هذا التصوير البيانى الأدبى لكلمات النص الربانى المعجز :

« إن هذا الخطاب : « يا أيها الإنسان » ينادى فى الإنسان أكرم ما فى كيانه ، وهو « إنسانيته » التى بها تميز عن سائر الأحياء ، وارتفع إلى أكرم مكان ، وتجلى فيها إكرام الله له ، وكرمه الفائض عليه .

ثم يعقبه ذلك العتاب الجميل الجليل : « ما غرك بربك الكريم » يا أيها الإنسان الذى تكرم عليك ربك راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة . يا أيها الإنسان ، ما الذى غرك بربك ، فجعلك تقصر فى حقه ، وتتهون فى أمره ، ويسوء أدبك فى جانبه ، وهو ربك الكريم ، الذى أغدق عليك من كرمه وفضله وبره ، ومن هذا الإغداق إنسانيتك التى تميزك عن سائر خلقه ، والتى تميز بها وتعقل وتدرك ما ينبغى ومالا ينبغى فى جانبه ؟

ثم يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهى ، الذى أجمله فى النداء الموحى العميق الدلالة ، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة فى التعبير . يفصّل شيئاً من هذا الكرم الإلهى المغدق على الإنسان المتمثل فى إنسانيته التى ناداه بها فى صدر الآية . فيشير فى هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله . وهو القادر على أن يركبه فى أى صورة وفق مشيئته . فاختياره

هذه الصورة له منبثق من كرمه وحده ، ومن فضله وحده ، ومن فيضه المغدق على هذا الإنسان الذى لا يشكر ولا يقدر ، بل يغتر ويسدر :

« يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك » ! ؟

إنه خطاب يهز كل ذرة فى كيان الإنسان حين تستيقظ إنســـانيته ، ويبلغ من القلب شغافه وأعماقه ، وربه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل ، ويذكره هذا التذكير الجميل وهو سادر فى التقصير ، مسيئ الأدب فى حق مولاه الذى خلقه فسواه فعدله .

إن خلق الإنسان على هذه الصورة الجميلة السوية المعتدلة ، الكاملة الشكل والوظيفة ، أمر يستحق التدبر الطويل ، والشكر العميق ، والأدب الجم ، والحب لربه الكريم الذى أكرمه بهذه الخلقة تفضلا منه ورعاية ومنة ، فقد كان قادراً أن يركبه فى أى صورة أخرى يشاؤها ، فاختار له هذه الصورة السوية المعتدلة الجميلة .

وإن الإنسان لمخلوق جميل التكوين ، سوى الخلقة ، معتدل التصميم ، وإن عجائب الإبداع فى خلقه لأضخم من إدراكه هو ، وأعجب من كل ما يراه حوله :

وإن الجمال والسواء والاعتدال ليبدو فى تكوينه الجسدى ، وفى تكوينه العقلى ، وفى تكوينه الروحى سواء ، وهى تتناسق فى كيانه فى جمال واستواء » ! !

* * *

ويقول القرآن الكريم عارضاً كرامة الإنسان القرآنى السوى العالى ، وخيبة الإنسان الشيطانى الهاوى ، وطريق النجاة والوقاية للإنسان الوفى لعهده مع ربه ، فيقول سبحانه : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ،

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فلهُمْ أَجرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » (سورة التين من ٤ ٦) .

إن الله تبارك وتعالى قد خلق كل شيء بإحسان وإتقان ، ولكنه مع هذا كرر النص فى كتابه على أنه سبحانه أحسن خلق الإنسان . ولا شك أن هذا يدل على فضل مزية للإنسان ، ومزيد من التكريم له . وهذا يرمز إلى أن الإنسان له عند ربه شأن خاص ، لأن الله أبدع تكوينه فى ناحية الحس والنفس ، وناحية العقل والروح ، وهذا الإنسان يرتفع شأنه فى حمى ربه إلى أعلى عليين ، حين يحافظ على سلامة فطرته وطهارة روحه ، وتوطد إيمانه .

ولكن الله المنتقم ممن يستحق الانتقام يرد ذلك الإنسان إلى الحضيض ، وإلى أسفل سافلين ، إذا ضل أو أضل ، فيهبط إلى مستوى البهائم والأنعام ، لانحرافه واعتسافه ، بعد أن كان فى مستوى الملائكة بنور إيمانه وسمو يقينه ، ولا يسلم من هذا الانتكاس إلا أهل الإيمان والعمل الصالح ، فهؤلاء لهم ثوابهم العظيم ، وأجرهم الطيب الموصول غير المقطوع : « فلهم أجر غير ممنون » .